

ارتفاع الصليب

ممن منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم

٣١٣-٣٨٧ م

نشره لأول مرة ، وعلق عليه
المصري بولس قرأني ، مدير المجلة البطريركية

٤

البعض الثاني

الاعتراضات (تابع)

٩ - شأنها واسرها التاريخية

أ - نشأتها

فانت ترى ان الاسطورة الثالثة تضم الاسطورتين السابقتين وتلجمها بقولها ان عود الصليب الذي استخاضته القديسة بطرسية من ايدي اليهود ، عاد هؤلاء فطوره لما تقروا في عهد طرايانوس وظل مطمورا حتى جاءت القديسة ميلانة فاخرجته من الدم وبنت له كنيسة عظيمة . وقد تضمنت هذه الاساطير من المبالغات والاختلاعات والاغلاط ما حدا العلماء الى الاعتراض عليها وتنكيكها قطعة قطعة . فتركوها آلة لا نظام لها ولا حراك ولا قية ، وعدوها ملثمة ، مع تسليمهم بانها قديمة في نشأتها ونسختها ، ومستندة الى بعض حقائق تاريخية .

واليك خلاصة آرائهم فيها ، نأخذ من مقالات الاب لكليز المذكور :
في اواسط القرن الرابع نشأت في كنيسة الرها اسطورة القديسة بطرسية .
تجدد في كتاب تعليم اداي الحاوي للاساطير الخاتمة حول نشأة هذه الكنيسة .
وهي موضوع المخطوطة الباريية رقم ٢٣٤ ، المنسوخة على الأرجح في اواخر

القرن الخامس .

وبعد مضي زهاء ثلاثين سنة ، اي في العشرين سنة الاخيرة من القرن الرابع ، حلت القديسة هيلانة الملكة محل القديسة بطرسية الملكة . فجات مثلها الى اورشليم ، واستلمت مثلها من اليهود عن الصليب ، ووجدت مثلها ثلاثة صلبان ، وعرفت مثلها الصليب الحقيقي من اقامته الميت ، وبنت له مثلها كنيسة كبيرة .

اما قصة يهوذا ، الذي دلها على مكان الصليب وتنصّر ثم سيم اسقفاً على اورشليم باسم قرياقوس ، فقد نشأت في مخيلة مسيحي فلسطين ، الذين ادغموا يهوذا المذكور بقرياقوس اسقف اورشليم الخامس عشر المستشهد حسب قول اوسابيوس ، في عهد ادريانوس . ولما بلغت هذه القصة الى الرها تألفت منها اسطورة هيلانة - قرياقوس موضوع المخطوطة رقم ١٤٦٤٤ من المتحف البريطاني ، المأخوذة ، على الأرجح ، في اوائل القرن السادس .

ثم ضمت الاسطورتان معاً في الرها ايضاً ، للتوفيق بينها ، وتألفت منها اسطورة بطرسية - هيلانة - يهوذا - قرياقوس ، موضوع المخطوطة الثالثة الاحدث عهداً رقم ١٢١٧٤ من المتحف البريطاني ، التي ترتقي نسختها كما قلنا الى القرن الثاني عشر .

فاصبح اكتشاف الصليب مرتين : الاولى على عهد يعقوب الرسول بلمي القديسة بطرسية ، والثانية على عهد قسطنطين الملك بسمي والدته هيلانة . وفي اواخر القرن الرابع كانت هذه الاساطير قد شاعت في كل النصرانية فردّها مؤرخون ولدوا في اوائله ونسبوا الى القديسة هيلانة ، التي زارت اورشليم في الربع الاول منه ، فضل اكتشاف الصليب المقدس : كالقديسين امبروسيوس ، ويوحنا فم الذهب ، وبولينوس من نولي ، والمؤرخين سوليس ساويرس وروفينوس الاكرويلاني . ومن اليونانيين سقراط وسوزومين وتودوريطوس .

وما لا شك فيه ان حكاية اعتماد قسطنطين ويهوذا من يد اوسابيوس اسقف زومية مصدرها رهاوي . لانه لا يعقل ان غريباً يخلط بين هذا الاسقف واوسابيوس اسقف نيقوميديّة ثم اسقف القسطنطينية ، الذي عمد قسطنطين في

آخر حياته ولهذا الاسباب نبذ المؤرخون القرييون هذه الاسطورة بعد ظهورها بنصف قرن.

٢ - اسمها التاريخية

ولننظر الآن ما لهذه الاساطير من الاسس التاريخية ، ملخصين مقالة الاب لكليز في هذا الصدد^١

في بدء القرن الرابع كان القبر المقدس في حالة يرثى لها . فقد كان مطمورا في تل من التراب المكثس ، يعلوه هيكل الزهرة الهة المشرق . ففكر قسطنطين الملك في ان يضع حداً لهذه الاهانة اللاحقة بالصليب المقدس ، وامر بهدم هيكل الزهرة ورفع الانتقاض والردم . ولما ظهرت مقبرة القبر امر بان تقام عليه كنيسة فخية ، قدمت المقاطعات الشرقية نفقاتها . وكسب الملك الى مكاريوس اسقف اورشليم ان يحفر على فخامة البناء ، والى دراسيليانوس ، حاكم المقاطعة ، ان يشرف على الاعمال ويؤمن سيرها .

عرفنا هذه التفاصيل من المؤرخ اوسابيوس ، الذي اثبتها في ترجمة قسطنطين^٢ وزاد عليها قوله : ان كنائس اخرى اقيمت في بيت لحم وعلى جبل الزيتون بمنايا ميلانة والدة الملك ، حين زارت فلسطين سنة ٣٢٦^٣

وفي سنة ٣٣٥ تمت كنيسة القيامة والجلجلة وحضر تدشينها الااقفة العائدون من مجمع صور ، حيث حطوا القديس اثناسيوس الاسكندري عن كرسيه ، لاسباب سياقي ذكرها . وقد اسهب اوسابيوس في وصف فخامة الكنيستين وافادنا ان قسطنطين عين لتدشينها عيداً رسمياً في كل الامبراطورية كان المؤمنون يتقاطرون من كل الجهات الى اورشليم لحضوره .

اما ميعاد اكتشاف الصليب فلا علم لنا به .

وقد انبأنا السابقة اثيريا الفرنسوية ، التي زارت فلسطين في اواخر القرن الرابع ، ان الصليب ظهر في احد اعياد تدشين الكنيستين . وعرفنا من غير

(١) راجع كبرول مج ٣ : ع ٢١٢٤-٢١٢٧

(٢) فصل ٢١

(٣) كتاب ٣ : فصل ٢٦

وثائق ان حفلة تكريم الصليب ، التي كانت قسماً من حفلة التدشين ، ما عمت ان فاقها اهمية واصبحت اكبر مظاهرها .

بيد اننا لا نرى ذكراً للصليب قبل سنة ٣٤٧ ، ولا ذكراً لعلاقة القديسة هيلانة باكتشافه قبل اواخر القرن الرابع .

ففي سنة ٣٤٧ يشير القديس كيرلس الاورشليمي ، في مواعظه ، الى تراحم المؤمنين للفوز بذخائر عود الصليب^(١) . وقد عُثر في جزائر القرب على كتابتين تشيران الى « خشبة الصليب المقدس » ، ترتقي الاولى منها الى سنة ٣٥٩

وفي سنة ٣٦٣ زى يوليانوس الجاحد يتهم المسيحيين بعبادة خشبة الصليب . وكانت القديسة ماكريتا ، شقيقة القديس غريغوريوس النيصي ، تحمل في سنة ٣٧٩ ذخيرة عود الصليب . وقد وصفت السائحة أنيريا ، في سنة ٣٨٥ ، الاستقف حاملاً بين يديه ذخيرة عود الصليب في حفلة الجمعية الحزينة والمؤمنين مزدحمين حوله للتبرك منها^(٢) . وازدفت بقولها : ان الصليب وُجد في احد اعياد تدشين كنيستين ، دون ان تذكر علاقة القديسة هيلانة باكتشافه . انما اخبرتنا ان قسطنطين اسر بيثا . الكنيستين بحضور والدته . وبعد هذا التاريخ تُعطى القديسة هيلانة الدور الاول في حادثة اكتشاف عود الصليب :

ففي سنة ٣٩٥ نسع القديس امبروسوس ، في اثنا . رثائه للملك تيودورسيوس^(٣) ينسب اليها فضل اكتشاف خشبة الصليب . كذلك القديس يوحنا فم الذهب ، في عظته عن مار يوحنا ، التي لفظها بين سنتي ٣٩٠ و ٣٩٥ يقول قوله ويضيف اليه ان « الحفريات قد اظهرت ثلاثة صلبان كان اوسطها حاملاً الكتابة المذكورة في الانجيل ، فُعُرف منها انه الصليب الحقيقي »^(٤) . وفي سنة ٤٠٢ يؤكد لنا المؤرخ روفينوس^(٥) ، وعنه اخذ سقراط^(٦) ، ان مكان الصليب

(١) المظنة ٤ رقم ١٠ ، والمظنة ١٠ رقم ١٩ ، والمظنة ١٣ رقم ٤ ، من مجموعة مين للاباء اليونان مج ٣٣ ع ٧٧٦٠٦٨٨٠٤٦٩

(٢) هي تني القديس كيرلس الاورشليمي لانه توفي في سنة ٣٨٧ كما سبق القول .

(٣) مجموعة مين للاباء اللاتين مج ١٦ ع ١٢٩٩

(٤) مجموعة مين للاباء اليونان مج ٨٥ رقم ١

(٥) روفينوس : تاريخ الكنيسة مج ١ ف ٨٧٢

(٦) مج ١ ف ١٧

كان مجهولاً قيل بحية هيلانة الى اورشليم ، انما الرب قد اهمها فأمرت بالحفر ووجدت ثلاثة صلبان حارت في ايها الحقيقي . فاستخضر القديس مكارىوس امرأة شرفسة على الموت ، نالت الشفاء . التام بمجرد لمس الصليب الحقيقي ، فشيدت له هيلانة كنيسة عظيمة .

وفي هذه السنة ايضاً ١٠٢٠ مجبرنا القديس بولينوس من نولي^{١)} وسوليس سويس المستقي منه^{٢)} ان الملكة استرشدت الى مكان الصليب من اجماع آراء اليهود ، فأجرت الحفر . ولما ظهرت الصلبان ، استحضرت ، هي لا مكارىوس ، جثة ميت ، لا سريضة ، وعرفت الصليب المقدس من اعجوبة اقامته .

واقدم الشهادات عن الصليب هي للقديس كيرلس الاورشليمي . ففي الرسالة التي ارفدها سنة ٣٥١ الى الملك قسطنس ابن قسطنطين يعلمه بانتخابه اسقفاً على اورشليم ، ويخبره عن اعجوبة ظهور صليب من نور في الجور بين الجلجلة وجبل الزيتون ، شاهده كل سكان اورشليم . ويبدأ كلامه بقوله « في عهد والدك ، ذي التقى والذكر الصالح ، وجدت في اورشليم خشبة الصليب المقدس . لان الله انعم على هذا الرجل بان يجد الاماكن المقدسة . »^{٣)} وقد انكر بعضهم نسبة هذه الرسالة الى القديس كيرلس للفقرة الاخيرة الواردة فيها عن الاستحالة . انما يعتقد اغلبهم بصحة نسبتها وان الفقرة ذخيلة .

١٠ — الاعتراض عليها

يلخص الاب لكثير ، في مقالاته المنشورة في معجم الآثار ، آراء الذين سبقوه في درس هذا المشكل التاريخي وانكروا علاقة القديسة هيلانة باكتشاف الثوب والصليب وبناء كنيسة القيامة وحججهم :

- ١ — سكوت المعاصرين عن ذكر خشبة الصليب قبل سنة ٣٣٧
- ٢ — لم ينسب احد الى الملكة هيلانة فضل اكتشاف الصليب قبل

(١) رسالة ٣١ رقم ٢ (٢) التاريخ المقدس مع ٢ ف ٢٢

(٣) مجموعة مين للاباء اليونان مع ٣٣ ج ١١٦٨

سنة ٣٩٠

٣ — لم ترر هذه الملكة اورشليم قبل سنة ٣٢٦ ، وقد بلغت الثمانين ولم يبقَ امامها من الحياة سوى سنتين او ثلاث.

قسطنطين في رسالته الى مكاريوس ، التي يوصيه فيها بالسهر على فخامة بناء كنيسة القيامة والجلجلة ، لا يذكر اكتشاف الصليب ولا علاقة والدته به تاهيك عن ان مؤرخه اوسابيوس ، الذي اسهب في ترجمة حياته وذكر زيارة والدته لبيت لحم وجبل الزيتون سنة ٣٢٦ ، لم يأتِ بذكر حفريات الجلجلة ولم يشر بكلمة الى الدور الذي نُسب الى الملكة في اواخر القرن الرابع بانها شرعت في التحقيق عن مكان الصليب ، وامرت بالحفر للبحث عنه ، واقامت له كنيسة بعد ظهوره .

وهكذا قل عن القديس كيرلس الاورشليمي ، الذي اشار في رسالته الى قسطنس الى اكتشاف الصليب في عهد والده ، وذكر في عظاته انتشار عبادة الصليب وذخائره ، قد سكت سكوتاً تاماً عن علاقة والدته به .

والسائحة أنيريا التي زارت اورشليم سنة ٣٨٥ قد اخبرتنا ان الصليب اكتشف في اثناء تدشين كنيسة القيامة والجلجلة سنة ٣٣٥ ، اي ثماني سنين بعد اكتشاف القبر ، دون ان تشير بكلمة الى القديسة ميلانة .

ومب ان القبر ظهر قبل الصليب ، وان الصليب لم يكن مدنوناً في القبر بل في مكان الصلب نفسه ، وانه لم يكن بعد قد اكتشف حين كتب قسطنطين رسالته الى مكاريوس ، فكيف نفسر سكوت اوسابيوس المؤرخ عن هذا الحادث ، وهو قد كتب حياة قسطنطين بعد وفاته سنة ٣٣٧ ، والاسطورة السريانية تدعي ظهور الصليب سنة ٣٢٦ . هذه العقدة لا تحل . فالعقل لا يتصور ان قسطنطين واوسابيوس ، المتحمسين لظهور القبر ، لا يكثران البتة لاكتشاف الصليب .

زد على ذلك ان سائح مدينة بوردر ، الذي زار اورشليم سنة ٣٣٣ ووصف عمود الجلد ودار قيافا واوان بيلاطس وجبل الجلجلة ومفارة القبر وكنيسة القيامة ، كيف امكنه السكوت عن ذكر الصليب المقدس ، لو كان

الصليب موجوداً.

وخلاصة القول : ليس لدينا دليل على ان الصليب قد وُجد في سنة ٣٢٦ ، حين زيارة القديسة هيلانة لاروشليم ، ولا قبل سنة ٣٣٣ التي حج فيها سائح يوردد الى المدينة المقدسة ، ولا قبل سنة ٣٣٥ ، التي قصد فيها المؤرخ اوسابيوس الى هذه المدينة لحضور حفلة تدشين الكنيستين .

بيد انه يتحتم علينا ان نحدد ميعاد اكتشافه قبل سنة ٣١٧ ، التي وصف فيها القديس كيرلس تهافت المؤمنين على اكبرام ذخيرته والحصول على جزء منها ، وبعد سنة ٣٣٥ التي حضر فيها اوسابيوس حفلة التدشين . انما نجعل زمان هذا الاكتشاف والظروف التي احاطت به . هل كان في سنة ٣٣٤ ، التي تكرست فيها الكنيستان ، كما يستدل من اقوال السائحة أنيريا ، وما هي الوسائل التي اتخذت لمعرفة مكانه وتمييزه عن الصليبين الآخرين ؟ هل استعشدت الملكة باقوال اليهود ام خضعت لالهام الهي ؟ هل عرفته من اقامة الميت ام من شفاء المريضة التي استعصرها الاسقف مكاريوس ؟ ... فالاقوال متناقضة بهذا الخصوص . ومها كان الامر فليس لدينا اشارة الى علاقة هذه الملكة باكتشاف الصليب قبل سنة ٣١٠ . ففي هذا الحين تظهر الملكة فيجأة في هذا الحادث وتمثل فيه دوراً مهماً ، كما ان الآراء فيه تتعدد وتتضارب ، مما يجعلنا على الشك في الامر ، ان لم نقل على نبذه كرواية خيالية .

اما الليتورجية فلا تطفى لنا غلة بهذا الصدد . جاء في المونولوج الباسيلي انه بعد تدشين الكنيستين سنة ٣٣٥ : أُذن للشعب في مشاهدة عود الصليب للمرة الاولى . وقد جاءت هذه الوثيقة متأخرة فلا يسنا التعويل عليها .

وقد عرفنا من سوزومين المؤرخ (٤٤٣-٤٤٤) انه تعين تدشين الكنيستين عيد رسمي كان يدوم ثمانية ايام ويُحتفى به في كل الامبراطورية . انما لا يذكر عيداً خاصاً بارتفاع الصليب . اما اسكندر الراهب الذي عاش في القرن السادس ، فيؤكد لنا ان الآباء القديسين ، بناء على ايعاز الملك قسطنطين ، حددوا يوم ١٤ ايلول عيداً واحداً لتدشين الكنيستين ولظهور الصليب . وقد كانت حفلة ارتفاع الصليب هيسوزيس : عيداً أحد اقسام حفلة التدشين ،

وما لبثت ان اصبحت اكبر مظهر فيها ، كان المؤمنون يتوافدون من كل انحاء الامبراطورية لحضورها . وجاء في قصة مريم المصرية انها ركببت البحر من الاسكندرية في سنة ٣٨٠ برفقة الحجاج المسيحيين القاصدين الى القدس لمشاهدة حفلة ارتفاع الصليب . ولما شاهدت الحشبة التي علل عليها القادي الالهى تجتمعت وآمنت وتابت توبة نصوحة . وجاء في سياحة انيريا ان عيد التدشين يُحتفى به احتفاء عظيماً ، لان فيه قد رُجِدَت خشبة الصليب ، وان الآباء قد وحدوا العيدين زيادةً في عظافتها وفي سرور المؤمنين ، واردفت بقولها : « ان الجماهير كانت تود لحضور هذا العيد العظيم من عدة مقاطعات : من بين النهرين وسورية ومصر العليا والسفلى . » وكلامها يثبت ان عيد ارتفاع الصليب كان منذ ذاك العهد يُحتفى به في الرابع عشر من ايلول . وقد وافقها في ذلك القديس ثيودوروسيوس . وذكر المؤرخان ثيودوريطوس وثاوفانوس ان الحشبة المقدسة كُتِحت الى قسطنطين . الاول اودع ذخيرة ثينة من فضة اقيمت في اورشليم ، والآخرون حمل الى القسطنطينية حيث اجتمعت ، فيما بعد الذخائر الثلاث ، كما ذكرنا ، وبلغت الخفارة بها حداً بعيداً من الابهة . ويرجع الاب لكليز ان تعميم هذا العيد على الشرق كله يرجع الفضل فيه الى العاصمة البيزنطية . وقد كان يجزى الاستعداد له في الايام الاربعة السابقة . وتقام حفلة الارتفاع « هيسوزيس » في الرابع عشر . ويُتِم العيد في الاحد التالي .

١١ - قمر القمر

ولننظر الآن أولاً ما قيمة هذه الاعتراضات ثانياً هل يصح تطبيقها على ميمرتا . ثالثاً اذا صح تطبيقها عليه هل تنفي نسبته الى القديس كيرلس .

١ - قيمة الاعتراضات

قد مر بك ان اهم ما يستند اليه الاب لكليز والقائلون قوله لانكار علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة ، او بالاحرى لانكار صحة معلومات الاساطير الرباتية ، هو ، أولاً سكوت المعاصرين عن

هذا الاكتشاف وهذه العلاقة . خاصة قسطنطين في رسالته الى مكاريوس ،
 وارسابيوس في ترجمته لقسطنطين . ثانياً لم يذكر احد هذه العلاقة قبل سنة
 ٣٩٠ . ثالثاً لم تر هذه الملكة فلسطين قبل سنة ٣٢٦ ، وكانت في سن
 الثمانين . رابعاً مغالاة الاساطير وتناقضها في تفاصيل الاكتشاف .

فليسمح لنا حضرته بلفت نظره أولاً الى ان السكوت عن امر لا يصح
 اتخاذ قاعدة لفيه . فالسكوت عن اكتشاف الصليب لا ينفي ظهوره الا اذا
 ثبت ان رسالة قسطنطين الى الاسقف مكاريوس ذكرت كل ما له علاقة بالقبر
 والاماكن المقدسة ، وان تاريخ ارسابيوس ذكر كل ما له علاقة بقسطنطين
 ومعاصريه وانه وصل اليها كاملاً سالماً . وهذا ما لا يسلم به احد . نعم ان
 مثل هذا السكوت يثير الشك انما لا ينقض وثيقة صريحة معاصرة ، الا اذا
 ظهرت وثيقة احدث منها بالتصديق . والى ان يبرز لنا حضرته ومظاهره
 مثل هذه الوثيقة ، لنا من الحق ان نتسكك بنا لدينا . لاسيما ان حضرته لم
 يتحفظنا بسوى التأويلات والاهام . واذا عثرنا في الاساطير على بعض المغالاة ،
 وفي روايات القرن الرابع على بعض التناقض ، فهي في التفاصيل الثانوية التي لا
 تجيز نبد الاصل بزمته . ولو تخيلنا عن هاتين القاعدتين لقبنا التاريخ رأساً
 على عقب .

فخلأ عن ان الاب لكثير نفسه يقول^(١) في ترجمة قسطنطين التي نظمها
 ارسابيوس انها « عبارة عن تقرير مقدم لشخص جعله اليرفان بين مصاف
 القديسين ، وغالوا منذ ذاك الوقت في مديحه » . فلا غرو من ان يهمل المطرئ
 في كتابه ما ليس لترجمه فيه فضل ، او ان ينسب اليه ما لم يأت من
 الحسنات .

وقد زاجنا رسالة قسطنطين الى الاسقف مكاريوس فلم نجد فيها اشارة
 صريحة الى اكتشاف القبر المقدس ، والارجح انه يشير الى اكتشاف الصليب
 والمسامير . فهو يتكلم عن ظهور « تمثال الآلام » (*monumentum passionis*)

ولا يصح اطلاق هذا التعبير على القبر المقدس لان المسيح لم يتألم فيه بل على الصليب.

وقد داخدا الرب في صفة الترجمة وعدنا الى النص الاصلي اليوناني^{١١} ، فتحققنا خطأ المترجم لانه عبر عن كلمة *monumentum* اي تمثال او بناء مع ان معناها الحقيقي « علامة ، شارة » . وهي لا تأتي بالمعنى الذي اختاره المترجم الا نادراً او بصيغة الجمع لا المفرد ؛ كما نبه الى ذلك اصحاب القاموس المطول المسمى « كتر اللغة اليونانية » المستندين الى الكتبة اليونان القدماء^{١٢} . اما بابلي الذي يستند في قاموسه الى القدماء والتأخرين معاً^{١٣} ، كالأبأ القديسين ، فلا يذكر مطلقاً هذه الكلمة بمعنى تمثال بل يكفي بقوله : *Signe. Marque. Ce qui fait reconnaître* اي علامة ، اي ما يستدل منه على الشيء ..

وقد اصاب مترجم المؤرخ تالودوريطوس الذي اثبت نص هذه الرسالة^{١٤} فنقل الجملة المذكورة بقوله *passionis illius sanctissimæ signum* اي علامة آلامه المقدسة . ونجد ايضاً كلمة *σημειον* بصيغة المفرد في سقراط المؤرخ^{١٥} الذي اورد نص هذه الرسالة .

فان صح القول بان قسطنطين يقصد بهذه الرسالة ظهور « اداة الآلام » اي الصليب والمسامير ، لا القبر وحده ، تنفي لنا للمرة الاولى ترتيب الحوادث التي سبقت ولحقت هذا الاكتشاف وتعيين سنة ٣٢٦ تاريخاً له ، وهدم رأي الاب كلير والقائلين قوله بان الصليب ظهر بين سنتي ٣٣٥ و ٣٤٧ ، وتعيين تاريخ الرسالة المذكورة .

Eusebius, *De Vita Constantini* 1. III. XXX P. G. 1090 (١)

Thesaurus Græcæ linguæ ab Henrico Stephano. Carolus Bened. Hase, (٢)
Guilielmus et Ludovicus Dindorfus... Parisiis. Firmin Didot, 1833, p. 688.

A. Bailly. *Dict. Grec-Français*. Hachette. Paris, 1894 p. 411 (٣)

P. G. 82 col. 955 (٤)

Socr 1. IX P. G. 67, col. 95 (٥)

وما يجوز لنا الحق في ذلك قول قسطنطين في هذه الرسالة « جا . هذا الاكتشاف العجيب على اثر تخلص المسيحيين من عدوهم الاكبر » . وقد ادلى مترجم تاريخ اوسابيوس^١ بديمان تدل على ان قسطنطين يقصد « بالعدو » صهره ايشينيوس (Licinius) الذي كان يشاطره الملك . فقد جدد هذا الاضطهاد على المسيحيين فعاربه قسطنطين ودحره في ١٨ ايلول سنة ٣٢٤ ، واضطره الى التزل له عن حصته في المملكة الرومانية . ونحن نعلم ان ايشينيوس توفي سنة ٣٢٥^٢ ، التي التأم فيها المجمع النيقوي ، في شهر آب . وان مكاريوس اسقف اورشليم عاد من هذا المجمع مسلحاً باذن من قسطنطين بان يهدم هيكل الزهرة الذي كان يعار قبر المسيح . وان الملكة هيلانة وصلت الى اورشليم بعيد ذلك اي في سنة ٣٢٦ كما اخبرنا اوسابيوس نفسه . فهي اذا قد اشرفت على اعمال رفع الانتقاض عن القبر المقدس فظهرت مغارة القبر وداخلها الصليبان والمسامير كما روى ميرنا . وحضرت ايضاً مباشرة بنا . كنيسة القيامة فوق الجلجلة التي ضمت ضمن جدرانها مكان الصليب والقبر . ولما علم قسطنطين بهذا الاكتشاف كتب الرسالة التي نحن بصددها الى مكاريوس اسقف اورشليم يكلفه السهر على زخرفة الكنيسة . ولعل قسطنطين يعني « باداة الآلام » القبر والصليب والمسامير معاً وقد ظهرت كلها في آن واحد كما عروي القديس كيرلس في المير .

كل هذه المعلومات الثمينة تصبح حقائق تاريخية يصح تدوينها على هذا الترتيب في تاريخ الكنيسة . فيرتفع الفموض الذي حام حتى الآن حول ظهور هذه الآثار المقدسة وتبدد الشكوك التي رافقت حتى اليوم علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبنائ كنيسة القيامة .

اما تعيين الاب لكثير^٣ تاريخ اكتشاف الصليب بين سنة ٣٣٥ ، التي حضر فيها الموزخ اوسابيوس تدشين كنيسة اورشليم ، وسنة ٣٤٧ التي وصف

(١) P. G. XX. 1090, nota 94.

(٢) راجع ، في تاريخ انكسار ايشينيوس ووفاته ، معجم كابول ٣ : ٢٦٣١ و ٢٦٣٢

(٣) كابول : ع ٢١٢٧

فيها القديس كيرلس الاردشليمي المؤمنين متهافتين على الفوز بذخيرة عود الصليب ، فلنا عليه ثلاث ملاحظات :

الاولى نرى ان نوحج حضرته بحجته ونقول : اذا كان سكوت اوسابيوس كافياً لنفي علاقة الملكة هيلانة باكتشاف الصليب ولانكار ظهوره قبل سنة ٣٣٥ ، فتحتم على الاب لكليز ان يوجب ميعاد هذا الاكتشاف الى بعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ . لان اوسابيوس لم يكتب ترجمته الا بعد هذه الوفاة فادخله سني ٣٣٥-٣٣٧ في ميعاد هذا الاكتشاف يخرج به عن القاعدة التي وضعها لنفسه ولغيره ويناقض به ذاته بذاته .

الثانية : وراه قد ناقض نفسه ايضاً في جعله سنة ٣١٧ حداً اقصى لظهور الصليب ، مستنداً الى اقوال القديس كيرلس الاردشليمي في مواعظه عن ذخيرة الصليب^(١) ، وهو يأتي بعد ذلك بشهادة اخرى للقديس كيرلس نفسه وردت في رسالته الى قسطنس الثاني ابن قسطنطين^(٢) حيث يقول «في عهد والدك التقي وصاحب الذكر الصالح وجدت في اورشليم خشبة الصليب المقدس» . ولما كان قسطنطين قد توفي في ١٢ ايار سنة ٣٣٧ ، فتحتم على الاب لكليز ان يُقدم ميعاد اكتشاف الصليب الى ما قبل هذه السنة ، لا ان يؤخره الى سنة ٣١٧ .

الثالثة : يقول حضرته^(٣) نقلاً عن اوسابيوس ان مكاريوس اسقف اورشليم ، بعد عودته من تجمع نيقية ، الذي انتهى في ٢٥ آب سنة ٣٢٥ ، باذن قسطنطين هدم هيكل الزهرة ، الذي كان يعلو القبر المقدس ، وتنظيف المكان وحفر أساسات كنيسة القيامة . ولما ظهرت مغارة القبر كتب اليه قسطنطين يهنئه ويخبره عن الاوامر التي اصدرها الى الحكام في شأن بناء الكنيسة ويوجه

(١) كابرول مج ٣ : ع ٢١٣٥

(٢) ع ٢١٣٦ ، راجع ايضا معجم فاكان مج ٣ : ع ٢٥٢٦ ، عن صحة نية هذه الرسالة الى القديس كيرلس

(٣) ٢١٣٤ راجع ايضا مقالة الاب آجيل في معجم كابرول مج ٧ : ع ٢٢١٢

الاشراف على زخرفتها . وجاء في مقالة الاب آيبل في المعجم نفسه " ان القديسة هيلانة لما زارت اورشليم كان حفر اساسات كنيسة القيامة قد بلغ الى آخر عمقه ، لان الاسطورة تنسب اليها اكتشاف الصليب . والاب آيبل يمثل آرا . كثيرين غيره من العلماء الذين يعتقدون ان الصليب اكتشف في اثناء حفر اساسات كنيسة القيامة . ونحن نعلم ايضاً من اوسابيوس ان كنيسة بيت لحم وجبل الزيتون بنيتا بعني الملكة هيلانة حينما كانت في فلسطين^(١) . ونعلم من انيريا^(٢) ان كنيسة القيامة بنيت ايضاً بحضورها . فاذا كانت القديسة هيلانة في اورشليم سنة ٣٢٦ فقد حضرت عملية ازالة الردم ، التي اظهرت مظارة القبر ، وحضرت ايضاً حفر اساسات كنيسة القيامة ، حيث يرجع الثمور على الصليب ، فضلاً عن انها بقيت في اورشليم الى قبيل وفاتها سنة ٣٢٩^(٣) ، فكيف ينكر الاب لكليز علاقتها باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة ؟ لاسيما ان انيريا التي زارت اورشليم سنة ٣٨٥ اي في عهد القديس كيرلس تفيدنا انها بنيت بحضورها^(٤) . وكيف تصور ان تكون شاهدت هذه الحوادث الخطيرة في تلويح النصرانية ولا تعيرها الاهمية والمساعدة ؟ وهي التي تجشمت عناء سفر طويل في سن الثمانين لزيارة الاماكن المقدسة ، وكان ابنها قد وضع تحت تصرفها خزانة الملكة^(٥) . ولا بأس ان تم كنيسة القيامة وتُدشن بعد موتها اي في سنة ٣٣٥ ، بل يكفي ان تشرف على بدء الاعمال ليجوز لنا القول انها سمعت وساعدت فيها . وهي التي اقامت وحدها كنيسة بيت لحم وجبل الزيتون . والفريب ان الاب لكليز يقول عنها في المحل ذاته : « حالما اعتنقت

(١) مج ٧ : ٢٦١٢ ، راجعه ايضاً في كتابه ع . اورشليم ج ٢ صفحة ٩٠٣ H. Vincent et F. M. Abel. Jérusalem. Paris, Lecoq, 1914.

(٢) كابول مج ٣ : ع ١٢٤٤

(٣) كابول مج ٣ : ع ٣١٢٥

(٤) كابول مج ٣ : ع ٢٦٢٢ ومج ٦ : ع ٢١٢٩

(٥) مج ٣ : ع ٢١٢٥

(٦) مج ٦ : ع ٢١٢٨

النصرانية اظهرت عبادة حارة نشيطة ، حتى ان اسمها اصبح مقررنا بتاريخ
الاماكن المقدسة واكتشاف الصليب . فنحن لا نرى بعد ذلك في علاقتها
بهذا الاكتشاف « اسراً غريباً وعقدة لا تحل » كما يدعي حضرته^(١) ، بل نرى
غريباً ومقدماً ان لا يجري الامر بخلاف رأيه .

ولنختم ردنا بملاحظة اخيرة على تناقض الاب المذكور . يقول في مقالته
المذكورة^(٢) : يستدل من كلام القديس كيرلس الاورشليمي في عظه ٤ : رقم ١٠
و ١٠ : رقم ٩ ان عبادة تكريم الصليب قديمة . واليك عبارته بالفرنسية
« Cyrille de Jérusalem (catech. IV, 10, X, 9) parle déjà du culte de
la croix comme ancien. » ان هاتين العظمتين ألقيتا
في صوم سنة ٣٤٧ فكيف جاز له بعد ذلك ان يعين اكتشاف الصليب بين
سنتي ٣٣٥ و ٣٤٧ ؟ هل هذه المدة كافية لتلقيب عبادة تكريم الصليب
« بالقدية » ؟

(١) مع ٣ : ع ٢١٢٧

(٢) ع ٢١٢١ حاشية : ١٠

(٣) ع ٢١٢٥

(لها بقية)

